معاهدة نصوح باشا (١٦١٢م/١٠٢١ه)

دراسة تاريخية تحليلية

(The Treaty of Nasuh Pasha (1612 CE / 1021 AH)

A Historical and Analytical Study

م. رسول حمزة عبد الحسن وناس

جامعة الكوفة / مركز التعليم المستمر / م.شعبة التدريب

Gmail-(rasolh.ahmdawi@uokufa.edu.iq)(07809771978)

ملخص البحث

شهدت العلاقات بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية تقلبات واضحة بين الصراع العسكري والتفاهم السياسي، تبعًا لموازين القوة بينهما. فقد اندلعت بين الطرفين حروب متكررة، خاصة في المناطق الحدودية وفي سياق التنافس على النفوذ في بعض الأقاليم العربية، إلى جانبش اعتماد الوسائل الدبلوماسية كالمفاوضات وعقد معاهدات الصلح والهدنة.

وتُعد معاهدة نصوح باشا (١٠٢١هـ/١٦١٢م) من أبرز هذه الاتفاقيات، إذ كان لها أثر مهم في تنظيم العلاقة بين الدولتين. وسُمّيت نسبةً إلى نصوح باشا، الصدر الأعظم في عهد السلطان أحمد الأول، ووقعت بين الدولة الصفوية بقيادة الشاه عباس الأول والدولة العثمانية في ظل السلطان أحمد الأول، في إطار سعي الطرفين إلى إعادة ترتيب أوضاعهما السياسية والعسكرية.

Research Abstract

Relations between the Safavid and Ottoman states were marked by clear fluctuations between military conflict and political accommodation, depending on the balance of power between them. Repeated wars broke out between the two sides, particularly in the border regions and within the context of competition for influence over certain Arab territories. At the same time, diplomatic means were employed, including negotiations and the conclusion of peace treaties and truces.

The Treaty of Nasuh Pasha (1021 AH / 1612 CE) is considered one of the most significant of these agreements, as it played an important role in regulating relations between the two states. It was named after Nasuh Pasha, the Grand Vizier during the reign of Sultan Ahmed I, and was concluded between the Safavid state under Shah Abbas I and the Ottoman Empire under Sultan Ahmed I, within the framework of both sides' efforts to reorganize their political and military affairs.

الكلمات المفتاحية: (نصوح باشا ، الدولة الصفوية، معاهدات)

مقدمة:

أخذت العلاقات الثنائية بين الدولتين: الصفوية والعثمانية من الناحية العسكرية (الصراعات) والسياسية أشكالًا متعددة تبعًا لقوة ونفوذ أيٍّ دولة منهما من ناحية، وضعف وتفتت -إذا صح التعبير- إحدى الدولتين من ناحيةٍ أخرى، وقد تعددت الحروب والمعارك بينهما خصوصًا فيما يتعلق بالمناطق الحدودية والأطراف وكذلك ما يتعلق بالسيطرة على البلدان العربية؛ ومن ضمن هذه العلاقات السياسية ما يتعلق بالدبلوماسيات وإبرام اتفاقيات ومعاهدات صلح أو هدنة.

ونحن الآن بصدد إحدى المعاهدات والتي كان لها أثرٌ كبيرٌ على الدولتين، وهي معاهدة نصوح باشا (١٠٢١ه - ١٦١٢م)، وفي البداية نوضح أن معاهدة نصوح سميت بهذا الاسم نسبة إلى نصوح باشا - الصدر الأعظم (الوزير الأول) للسلطان العثماني أحمد الأول-، وقد وقعت هذه الاتفاقية (المعاهدة) عام ١٦١٢م/١٠٢١هـ بين الدولة الصفوية تحت حكم الشاه الفارسي عباس الكبير (عباس الأول)[١] والدولة العثمانية تحت حكم السلطان العثماني أحمد الأول[٢].

وتأتي هذه المعاهدة كواحدة من محطات السلم بين الدولتين: الصفوية والعثمانية بعد حرب نشبت في ١٦٠٣م واستمرت حتى عام ١٦١٢م بموجب هذه الاتفاقية؛ لكن كعادة العلاقات المضطربة والمليئة

(١) الشاه عباس الأول (٢٧ يناير١٥٧١م - ١٩ يناير١٦٢٩م)، كان يعرف أيضًا باسم عباس الأكبر، أصبح شاه إيران عام ١٥٨٨، بعدما تمرد على أبيه محمد خدابنده وسجنه، وضرب بيد من حديد على غارات الأوزبك، ويُعتبر أحد أعظم ملوك الأسرة الصَّفوية؛ حيث حرَّر الأراضي الفارسية (الإيرانية) من احتلال القوات العثمانية. وجعل أصفهان عاصمة فارس وشيد بها أبنية ضخمة، استولى بمساعدة الإنجليز ١٦٢٢م على هرمز من البرتغاليين، وأسس ما يعرف الآن بميناء بندر عباس، عزَّزَ التجارة ورعى الفنون، فبلغت الحركة الفنية الفارسية أوجها في عهده. للتفصيل ينظر: كمال السيد، نشوء وسقوط الدولة الصفوية(إيران: مكتبة فدك، ٢٠٠٥م).

(٢) السلطان أحمد خان الأول (٩٩٨هـ / ١٥٩٠م - ١٠٢٦هـ / ١٦١٧م)، السلطان العثماني الرابع عشر، تولى الحكم عام ١٦٠٣م، وتوفي سنة ١٦١٧م. للتفصيل ينظر: صالح كولن ، سلاطين الدولة العثمانية ، ترجمة :منى جمال الدين،(القاهرة : دار النيل للطباعة والنشر،٢٠١٤م)، ص١٤٦.

بالنزاعات العسكرية والحروب بين الدولتين لم تلبث هذه المعاهدة وقتًا طويلًا؛ فهي بمثابة هدنة قصيرة الأجل في سلسلة حروب ممتدة.

وقد سبق هذه المعاهدة عدة معاهدات أبرمتها الدولتان منذ قيام الدولة الصفوية وتوغلها تجاه الأراضي العثمانية مما شكل خطرًا محدقًا بالدولة العثمانية، وتراءى لها ضرورة القضاء على المد الشيعي الذي يقوده الصفويون بلا هوادة ضد أهل السنة في تلك المناطق.

ومعركة چالديران[١] (١٥١٤م) – أول معركة عسكرية حامية الوطيس بين الدولتين– تكشف لنا عن الحنق والغضب لدى العثمانيين من الامتداد الصفوي؛ فقد بادر سليم الأول بتكوين تحالف عسكري مع الأوزبك ضد الشاه إسماعيل الصفوي، وحاول المبادرة بالاشتباك وبالفعل جر الجيش الصفوي إلى سهل چالديران وأمطره بالنيران، وحدثت بعدها حوادث مثيرة في الأمور التي تتعلق بموقف العودة أو الاستمرار في التوغل في الأراضي الصفوية، وانتهى الأمر بفتح أماسية وعودة العثمانيين، ولم يهدأ الصراع بعدها، بل عمل العثمانيون على إثارة القلاقل وتحريض الأكراد ضد الشاه إسماعيل الصفوي، وتمت توقيع اتفاقية (١٥١٥م) بين العثمانيين والأكراد، ويمكن وصفها بأنها اتفاقية صداقة وتحالف[٢].

ونشبت بعدها بين الدولتين المذكورتين –الصفوية والعثمانية– حروب متعددة تغذيها النزاعات المذهبية، وتأجج حدتها الصراعات السياسية والاستراتيجية وبسط النفوذ.

والبحث الذي نحن بصدده يعد محاولة متواضعة لسبر أغوار معاهدة نصوح باشا التي تؤكد تفحل الصفويين في تلك الأثناء، وتوضح أن الأمور العسكرية بين الدولتين لم تكن على وتيرة واحدة، بل كان الفوز لهؤلاء مرة وللآخرين مرة أخرى، وتؤكد هذه المعاهدة أيضًا –كما سيتضح من خلال البحث– أن التحديات السياسية والاستراتيجية لكلا الدولتين كانت تفرض عليهما كثيرًا النزوع إلى الصلح، وتهدئة الصراع.

إشكالية البحث: يعالج هذا البحث عدة إشكاليات في صورة تساؤلات، ولعل أبرزها:

١. ما هي أسباب توقيع الاتفاقية ودوافع الدولتين لإبرامها؟

٢. ما هي الآثار المترتبة على توقيع الاتفاقية بين الدولتين؟

٣. ما هو موقع الاتفاقية بين غيرها من الاتفاقيات التي أبرمت بين العثمانيين والصفويين؟

---

(١) للتفصيل ينظر: أ.د.محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في إيران، (بيروت: دار النفائس، ٢٠٠٩م)، ص٧٥، وانظر أيضًا: العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران ١٥١٤م، ١٠. د.نايف عيد السهيل ، العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران ، (القاهرة : مركز البحوث والدراسات التاريخية، ٢٠٠٩م)، ص٢٧.

(٢) د. أكمل الدين إحسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ،(اسطنبول: مركز أبحاث التاريخ بإسطنبول ، ١٩٩٩م) ، ص١–٣١.

٤. هل كانت الاتفاقية لإنهاء حرب قائمة أم أنها كانت وسيلة سياسية لتحقيق مصالح الدولة الصفوية؟

منهج البحث:

تفرض طبيعة البحث في هذا الموضوع استخدام المنهج الوصفي، والمنهج التحليلي المقارن، وسأتبع المنهج الوصفي لوصف الظروف المحيطة بعقد الاتفاقية، أما المنهج التحليلي المقارن فسأتبعه لتحليل آثار بنود الاتفاقية على كلا الدولتين، ومقارنتها بغيرها من الاتفاقيات الأخرى المبرمة بين الدولتين.

خطة البحث:

جاء هذا البحث في: مقدمة، ومبحثين، وخاتمة؛ وذلك على النحو التالي:

المقدمة: تناولت فيها لمحة يسيرة عن طبيعة العلاقات العسكرية والسياسية بين الدولتين: الصفوية والعثمانية، وإشكالية البحث، ومنهج البحث.

المبحث الأول: المعاهدات السابقة بين الصفويين والعثمانيين.

المبحث الثاني: بنود معاهدة نصوح باشا وتحليلها.

الخاتمة: وتضمنت أبرز النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الأول:

المعاهدات السابقة بين الصفويين والعثمانيين

(أ) معاهدة (صلح) أماسيا (١٥٥٥م)[١]:

بعدما وضعت الحرب أوزارها في معركة چالديران سعت الدولة الصفوية بقيادة الشاه إسماعيل مسعى دبلوماسيًا يهدف إلى عقد صلح بين الدولتين مقابل الإفراج عن زوجته الأسيرة "بهروزة خانم"، وقوبل عرضه بالرفض من جانب سليم الأول –السلطان العثماني–، بل بالغ في الأمر وزوجها من أحد رجاله[٢].

(١) د.عباس إسماعيل صباغ ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية: الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، (بيروت: ، دار النفائس، ١٩٩٩م)، ص ١٨١.

(٢) ١١. ف.ب.هامر، تاريخ امبراطوري عثماني، ترجمة: ميرزا زكي علي مازندراني، به اهتمام: جمشيد كيان فر، تهران، ١٣٦٧هـ ، ج٢، ص٨٥٠.

ولم تكتف الدولة الصفوية بهذا الصنيع في سعيها نحو إبرام صلح مع الدولة الأقوى –الدولة العثمانية– بل أرسل الشاه إسماعيل رسالة تعزية للسلطان سليمان القانوني يعزيه في وفاة والده سليم الأول (ت:١٥٢٠م)، ويبارك له فيها على وصوله إلى عرش الحكم.

ويشير "عباس صبَّاغ"[١] إلى أن الفاصلة الزمنية بين موت سليم الأول وموت إسماعيل الصفوي كانت أربع سنوات فقط، كما أنه لم يحدث من عظائم الأمور بين الدولتين إلا استيلاء العثمانيين على ديار بكر ١٥١٦م، واستيلاء إسماعيل على إقليم گرجستان ١٥٢٠م (جورجيا الآن) كاستغلال لحادثة وفاة سليم الأول.

وبعد تنصيب الشاه طهماسب ١٥٢٤م رأى أمراء القزلباش[٢] ضرورة استعادة عاصمتهم "تبريز"[٣] من من يد العثمانيين، وبالفعل استردوها ١٥٢٩م على حين غفلة من انشغال سليمان القانوني بحروبه في الغرب مع النمسا لكن الظروف لم تكن تسمح لهم نتيجة الفوضى والاضطراب في البلاد الواقعة تحت الحكم الصفوي، واستغلال أمراء تلك البلاد لصغر سن الشاه طهماسب –١١سنة عندما تولى الحكم–، وكان من بين هؤلاء الأمراء "ذوالفقار بن نخود" الذي أعلن ولاؤه للعثمانيين، وانتهى الأمر بحملة جهزها القزلباش واستردت بغداد، وفرَّ ذوالفقار إلى بلاط السلطان العثماني.

لم يكن سليمان القانوني يتجه إلى الصراعات على الجهة الشرقية لحدود دولته قبل أن يفرغ من تهدئة الأمر على الناحية الغربية لدولته، وقد تم له ذلك بعد صلح مع النمسا ١٥٣٣م، والتفت بعدها إلى الشرق، فبادره الشاه طهماسب بعرض للصلح عبر سفيره "استاجلو خان" لكن السلطان رفض، وجهز حملة بقيادة "إبراهيم باشا" ورفقة "أولمه تكه لو خان" وسار إليهما السلطان سليمان القانوني، ودخل تبريز دون حرب، واسترد بغداد عام ١٥٣٤م.

واستغل السلطان العثماني حادثة انشقاق القاص ميرزا[١] –أخي الشاه طهماسب– ولجوئه إليه (١٥٤٦م) وجهز جيشاً يهدف إلى السيطرة على إيران وملحقاتها وإنهاء الحكم الصفوي بها، وانطلق إلى الأراضي الإيرانية، وانتهى الأمر على استيلاء السلطان العثماني على تبريز، وانتهى أمر القاص ميرزا على الحبس بعدما تخلص العثمانيون منه، وعثور جنود الشاه عليه، وبعدها أمر الشاه بحبسه.

---

(١) عباس إسماعيل صباغ ،المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٢) كلمة قزلباش التركية تتكون من مقطعين الأول: قزل تعني الأحمر، وباش تعني الرأس، والمعنى الحرفي للكلمة الرأس الاحمر، والمقصود أنهم ذوو القبعات الحمر، والقزلباشيين هم أصحاب الفضل في قيام دولة إسماعيل في تبريز؛ حيث كانوا قمة في الطاعة العمياء والانقياد التام لملكهم وشعلة من التعصب والحقد على اعدائه. للتفصيل ينظر: ف.ب.هامر، المصدر السابق ، ص٨٦٠.

(٣) كانت عاصمة الدولة الصفوية في مهدها، وقد فرَّ إليها الشاه إسماعيل بعدما قتل "محمد خان استاجلو" –أقوى قواده– في معركة چالديران (١٥١٤م)، وتركها إلى "خوي" بعدما أمر سليم الأول قائده "أحمد باشا علي دوقاقين" بتتبع الفارين، واستولى القائد على خزائن الشاه وحريمه، ودخلها السلطان سليم العثماني في عظمة وأبهة. المصدر نفسه.

(١) عباس اسماعيل صباغ ،المصدر السابق ، ص١٧٩.

قرر الشاه الصفوي "طهماسب" نقل عاصمة بلاده من تبريز إلى قزوين (١٥٥٢م)، واستولى بعدها على شيروان وأرمينية الغربية، وأعدَّ السلطان العثماني عدته لاسترجاع ما ضاع من يد العثمانيين، وهنا طلب الشاه –عبر سفارةٍ له إلى استانبول– الصلح مع السلطان العثماني، وقوبل العرض بالرفض، وخاض الطرفان عدة معارك انتهت بأسر سنان باشا – أحد أبرز قواد السلطان، عُرض على السلطان الصلح من قبل وزيره الأعظم –محمد باشا–، وقبل به، وتم إرسال سفارة من قِبل الشاه إلى أماسيا – حيث يعسكر السلطان العثماني– لإتمام الصلح، وبنود الصلح (المعاهدة)[١]:

(١) تقسيم جورجيا وأرمينيا بين البلدين بالتساوي.

(٢) تقع العراق تحت السيطرة العثمانية.

(٣) تكون قارص حدًّا فاصلًا بين الدولتين.

(٤) احتفظ الصفويون بعاصمتهم السابقة تبريز.

(٥) السماح للإيرانيين بأداء الحج في مكة، وزيارة الأماكن المقدسة الشيعية في العراق.

(٦) إنشاء العديد من المناطق العازلة أيضًا في جميع أنحاء شرق الأناضول، كما هو الحال في أرضروم وشهرزور وفان.

(٧) يعمل الطرفان على عدم إيواء كلٍّ من رجال الدولتين أو أحد أفراد البيوت المالكة.

ومن هنا نلاحظ:

- تكرار محاولات الجانب الصفوي لإتمام اتفاق صلح مع العثمانيين، وذلك لإيمانهم بأنه لا طائل من معاداة الامبراطورية العثمانية.
- قوة ونفوذ الجانب العثماني؛ فقد كانت الدولة الصفوية الطرف الأدنى والأضعف أمام النفوذ والقوة التي تمتعت بهما الدولة العثمانية أيام السلطان سليم الأول ومن خلفه السلطان سليمان القانوني، ويبرز ذلك من خلال رفضه الصلح لمرات، وإغارته على المناطق الصفوية، ودخوله إلى عاصمتهم –الأولى– تبريز أكثر من مرة، ولجوء الشاه طهماسب إلى نقل العاصمة إلى قزوين.
- نلمح من موافقة العثمانيين على الصلح مع الصفويين اقتناعهم باستحالة القضاء على الدولة الصفوية.
- صلح أماسيا كان صلحًا مشروطًا؛ حيث اشترط السلطان العثماني –سليمان القانوني– الإفراج عن سنان باشا المأسور قبل إتمام الصلح.
- تعد معاهدة أماسيا هي أول معاهدة بين الدولتين.
- حققت معاهدة أماسيا أطول فترة سلام بين الدولتين (أكثر من عشرين سنة).

(١) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سليمان، (د.م : مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٨٨م)، ص٣٤٧.

- تطرقت الاتفاقية إلى الجانب العقائدي، وذلك بالسماح للإيرانيين (شيعة) بأداء الحج وزيارة الأماكن المقدسة في العراق.
- فتح المجال للعلاقات الدبلوماسية.
- ساهمت هذه الاتفاقية في إطفاء شرر اندلاع الحرب بفضل أحد بنودها، وحدث ذلك عندما لجأ بيازيد –ابن السلطان سليمان القانوني– إلى البلاط الصفوي (عام ١٥٥٩م)، وبفضل احترام الشاه للمعاهدة، وحفظه على سير سفينة السلام بين الدولتين تم تسليم الأمير بايزيد إلى مندوبي السلطان سليمان عام ١٥٦١م، وتم التخلص منه ومن أبنائه على حدود قزوين.

(ب) معاهدة استانبول (١٥٩٠م):

استمر العهد والاحترام السياسي والدبلوماسي بين الدولتين خلال فترة حكم السلطان العثماني سليمان القانوني (ت: ١٥٦٦م)، وحكم ابنه سليم الثاني (ت: ١٥٧٤م)، وجزء من فترة حكم مراد الثالث –ابن سليم الثاني– الذي تولى الحكم عام ١٥٧٤م، هذا على الجانب العثماني، أما على الجانب الصفوي فقد حافظ الشاه طهماسب (ت: ١٥٧٦م) على احترام معاهدة أماسيا.

وفي العام التالي على وفاة طهماسب تُوفي ابنيه: حيدر ميرزا، وإسماعيل الثاني، وتولى الحكم بعدهما محمد خدابنده الذي يُؤرَّخ لبداية حكمه بنهاية العصر الذهبي للهدوء بين الجانبين، ومما يجب أن يذكر أن هذه المعاهدة سميت بالقسطنطينية، وسميت أيضًا بمعاهدة فرحات باشا –قائد في الجيش العثماني.

وهناك عدة أسباب لانكسار صلح أماسية ووقوع الحرب بين الدولتين مجددًا[١]:

(١) انهيار السلطة المركزية في إيران بسبب ضعف الشاه محمد خدابنده، وانقسام الأمراء القزلباش.

(٢) فكرت الدولة العثمانية فيب استغلال الحالة الضعيفة التي كانت عليها الدولة الصفوية والفوضى الداخلية في إيران، وانقضت على مناطق الأطراف كتأمين اقتصادي لها من خلال السيطرة على البلاد المنتجة للحرير.

(٣) طموح العثمانيين في اجتياح إيران كتأمين مورد إضافي لدولتهم بعد الفشل في البحار إثر معركة ليبانت ١٥٧١م.

اشتعلت الحرب نتيجة تعرض إحدى القوافل العثمانية للنهب في زنجان، وهجوم والي وان –خسرو باشا– على أذربيجان١٥٧٨م.

وعندما تولى الشاه عباس الأول (الكبير) الحكم عام ١٥٨٧م حاول تهدئة الأوضاع وحل المشكلات الخارجية مع الأوزبك في الشرق، والعثمانيين في الغرب.

بادر الشاه عباس الأول بإرسال سفارة للصلح مع الدولة العثمانية عام ١٥٩٠، ووافق السلطان العثماني نتيجة ضغوط اقتصادية، وكانت الاتفاقية تنص على:

---

(١) عباس اسماعيل صباغ، المصدر السابق، ص ١٨٥.

(١) تقع تبريز تحت القيادة العثمانية، وآلت أيضًا إليها معظم بلاد جنوب القوقاز.

(٢) توقف الصفويين عن سب الخلفاء الراشدين -أبي بكر وعمر وعثمان- وعائشة -زوج النبي-.

(٣) يبقى حيدر ميرزا كرهينة في استانبول؛ لضمان عدم التجاوزات على مناطق الأطراف العثمانية من قِبل الصفويين.

(٤) تتعهد الدولتان بالإفراج عن أسرى الحرب.

(٥) عدم إيواء الفارين من كلا الجانبين.

ومن هنا نلاحظ:

- ضعف وانهيار السلطة المركزية للدولة الصفوية إبان فترة حكم محمد خدابنده حققت للدولة العثمانية مرادها من التأمينات الاقتصادية لضمان استمرار قوتها.
- كانت الاشتراطات التي فرضتها الدولة العثمانية مبتكرة وتوحي بمدى النفوذ والقوة، وبالأخص فيما يتعلق باتخاذ رهينة -أحد أمراء البيت المالك الصفوي-لديها لضمان عدم نقض الاتفاقية، أو التجاوز من قبل الصفويين على مناطق الأطراف.
- وجود جانب عقيدي في المعاهدة ينتصر فيه العثمانيون للخلفاء الراشدين وللسيدة عائشة -رضي الله عنها-.
- اقتطاع جزء من الأراضي الإيرانية يتمثل في تبريز ومناطق شمال غرب إيران، وهذا يضمن للدولة العثمانية أمانًا عسكريًّا واستراتيجيًّا، ويحقق في الوقت ذاته موردًا اقتصاديًّا من خلال السيطرة على الحرير.
- بقاء البنود التي تتعلق بإرجاع الفارين من كلا الدولتين إلى حكوماتهم، وذلك يشير إلى خوف الدولتين من انقسامات داخلية.
- يتبين من خلال القراءة المتأنية للبنود أن الدولة العثمانية أجحفت في حق الصفويين، واستغلت حالة الضعف بلا تباطؤ.
- استطاع الشاه اسماعيل الأول انتزاع هذا الصلح لتأمين الجهة الغربية لبلاده؛ فهو كان بين عدوين يتحدقان ببلاده: الأوزبك من الشرق، والعثمانيين من الغرب، وأراد التهدئة حتى يتسنى له فرصة إعادة الأمن والاستقرار داخل بلاده، وإعادة ترتيب الداخل بشكل كامل.

ومن الهام في هذا الصدد توضيح مسارات الأمور ونتائج معاهدة استانبول (١٥٩٠م) على كلا الطرفين:

على الجانب الصفوي: كانت اتفاقية استانبول مجحفة بحق الصفويين، وقد وافقوا عليها اضطرارًا، وكانوا على استعداد لتغييرها متى سنحت الفرصة، واستغل وجودها في التفرغ للأوزبك، وقد خاضوا معارك متتالية معهم انتهت بردهم إلى ما وراء خراسان ١٥٩٦م.

وفي سياق متصل لما يقوم به الشاه عباس من إصلاحات، ومحاولات للتخلص من صلف اتفاقية فرحات باشا عهد إلى جيشه وجهزه ودعمه بالأسلحة النارية استعدادًا للحرب في أي وقت، وقام بعدة إصلاحات اقتصادية تساعد بلاده على النهوض وتأمنها من تداعيات النظام الاقتصادي العالمي، ونقل عاصمة بلاده إلى أصفهان (في العمق الصفوي) كإجراء تمهيدي لشن حرب سافرة مع العثمانيين.

على الجانب العثماني: حاول مراد الثالث السيطرة على حرير گيلان، بعد طلب الوساطة لرفع يد الشاه عباس عن والي گيلان الذي استقل عن الدولة الصفوية ١٥٩١م، وكان الشاه عباس يحاول تأديبه، وقد رفض الشاه عباس تلك الوساطة، وفي السياق نفسه أرسل السلطان محمد الثالث –تولى الحكم عام ١٥٩٥م بعد أبيه مراد الثالث– عام ١٥٩٨م سفارةً إلى الشاه يطالبه فيها ب[١]: مزيد من الامتيازات، وأن يترك خراسان للأوزبك، وأن يرسل ابنه الأكبر إلى استانبول كرهينةٍ بدلًا من حيدر ميرزا الذي توفي عام ١٥٩٠م.

وقد عانت الدولة العثمانية أزمةً اقتصاديةً طاحنةً أيام محمد الثالث (١٥٩٥م:١٦٠٣م) ولها أسباب تتعلق بنظام التجارة العالمي وسيطرة الأوربيين عليها.

وفي نهاية هذا الفصل نخلص إلى النتائج التالية:

- رحى الحرب بين العثمانيين والصفويين لم تهدأ منذ نشأة الدولة الصفوية، ويتضح لنا أن السلاطين العثمانيين أرادوا اقتلاع جذور تلك الدولة، وباءت محاولاتهم بالفشل.
- كلا الدولتين لا تأمن على حدودها في أكثر من جهة؛ فالدولة الصفوية لا تأمن من الشرق مع الأوزبك ولا من الغرب مع العثمانيين، والعثمانيون لا يأمنون من الغرب مع البلاد الأوروبية (أوروبا المسيحية)، ولا من الشرق مع العدو المتربص (الصفويين).
- الإمبراطورية العثمانية كانت تتحلى بنفوذ قوي وقوة عسكرية ضاربة.
- مرت الدولة الصفوية بمراحل قوة أيام الشاه طهماسب، وانتزعت صلحًا هامًا مع العثمانيين (معاهدة أماسيا) التي حققت سلام بين الدولتين لم يفك عراه إلا الطمع الاقتصادي للعثمانيين، واستغلالهم ضعف الدولة الصفوية أيام محمد خدابنده.

(١) عباس اسماعيل صباغ، المصدر السابق، ص١٨٩.

• ارتكاز المعاهدات بين الدولتين على جانب ديني؛ ففي معاهدة أماسيا كان الأمر يتعلق بوصول الحجاج الإيرانيين إلى مكة، وغيرها من الأماكن الشيعية المقدسة في إيران، وفي معاهدة استانبول كان الأمر يتعلق بتوقف الجانب الصفوي عن شب الخلفاء والسيدة عائشة، ووجود مثل هذا الأمر في أكثر من معاهدة يشير إلى اهتمام الدولتين بالمصالح الدينية والعقدية، وانشغالهما بها، ونلمح منه أيضًا وجود نزاعات دينية تذكي نار الحرب.

• سيطرة العثمانيين على مساحات شاسعة بموجب اتفاقية فرحات باشا (معاهدة استانبول١٥٩٠م)، وهي اتفاقية الخذلان للدولة الصفوية.

• ونشير إلى دور الانشقاقات داخل كلِّ دولةٍ منهما في إذكاء الحروب، وإشعال الثورات، ومن هنا اتفق الطرفان (الصفوي والعثماني) على وضع بند يتعلق بتسليم الفارين إلى حكوماتهم كضمان سياسي لعدم اللجوء إلى الحرب.

المبحث الثاني:

بنود معاهدة نصوح باشا وتحليلها

سبق هذه المعاهدة بحوالي عقدين من الزمان معاهدة القسطنطينية (١٥٩٠م)[١] بين الدولتين: العثمانية والصفوية، وعرفنا من خلال المبحث السابق أن الدولة العثمانية فرضت شروطها وأملت قراراتها واقتطعت جزءًا من الأراضي الإيرانية، وقد وافق الشاه الصفوي (عباس الأول) على تلك الشروط بغية التوصل إلى هدنة مع العثمانيين في الجهة الغربية والتفرغ لمهاجمة الأوزبك وردهم إلى ما وراء خراسان؛ نظرًا لتفحل هجماتهم واستيلائم على مناطق إيرانية، وزرعهم الثورات ضد البيت الصفوي[١].

لم تلبث هذه الاتفاقية وقت طويل؛ فكلا الطرفين يعلم الأهداف والنوايا التي تنطلي عليها الموافقة على إتمام الصلح؛ فالشاه يعلم بما يسعى إليه السلطان العثماني من محاولات القضاء على الدولة الصفوية واستغلال حالة الفوضى الداخلية في إيران، وكسب المزيد من المناطق الهامة في إنتاج الحرير وعلى طرق نقله إلى الدول الأخرى، والسلطان يعلم أن موافقة الشاه عباس كانت ضرورة للتفرغ للحرب ضد الأوزبك (جهة واحدة بدلًا من جهتين)، وبناءً على ما سبق فقد تم نقض المعاهدة بعد أقل من عام؛ وأخذ كل طرف يعمد إلى التأهب للحرب.

---

(1) Jump up ^ Alexander Mikaberidze, Conflict and Conquest in the Islamic World: A Historical Encyclopedia, ABC-CLIO, 2011, p. 698.

(1) Jump up ^ Prof. Yaşar Yücel-Prof. Ali Sevim:Türkiye Tarihi III, AKDTYKTTK Yayınları, 1991, pp. 21–23, 43-44. Jump up ^ Nicolae Iorga: Geschichte des Osmanischen Reichs Vol. III, (trans: Nilüfer Epçeli) Yeditepe Yayınları, 2009, ISBN 975-6480-20-3 ,p. 213.

اندلعت الحرب بالفعل سنة ١٦٠٣م –نفس السنة التي تولى فيها أحمد الأول ابن محمد الثالث الحكم–، وفي تلك الأثناء كانت الجبهة الداخلية للدولة العثمانية في أزمة اقتصادية وتعاني بعض الفوضى بين الرعية وبعض الثورات بين الجند، وفي الوقت ذاته تخشى تهديدًا من الجهة الغربية وتربص العدو المجري (الغرب المسيحي) [١] بها.

أما على الجانب الصفوي فقد حقق إنجازات وانتصارات ضخمة ضد الأوزبك، واستطاع الشاه عباس الكبير أن يدعم صفوف جيشه بالأسلحة النارية، وتغيير جلد الجنود، فلم يصبح الجيش من القزلباشيين فقط كما كان من قبل، بل تعدد أفراده بين الأرمن والگرجيين، وهاجم الشاه تبريز بجيشه سنة ١٦٠٣م.

واستمرت الحرب سجالًا منذ عام ١٦٠٣م إلى عام ١٦١٢م، وهو العام الذي تم فيه توقيع اتفاقية (معاهدة) نصوح باشا، وبنودها[٢]:

(١) توافق الدولة العثمانية على إعادة كل الأراضي التي حصلت عليها بموجب معاهدة فرحات پاشا.

(٢) إعادة ترسيم الحدود لما كانت عليه في معاهدة أماسيا (١٥٥٥م).

(٣) وافقت الدولة الصفوية على دفع ٢٠٠ حِمل (٢٢٠٠٠ كيلو غرام) من الحرير.

(٤) إتاحة الحج للإيرانيين عبر طريق (دمشق–حلب) بدلاً من (البصرة–بغداد).

(٥) تتعهد الدولة الصفوية بعدم حماية "هلوخان" حاكم شهرزور.

ويمكن تحليل البنود السابقة ونتائجها كالآتي:

- برزت القوة الصفوية لأول مرة بالقدر الذي يجعل الإمبراطورية العثمانية توافق على إملاءات شروط الشاه الصفوي.
- استعادت الدولة الصفوية مساحات كبيرة كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية وفقًا لبنود اتفاقية استانبول (فرحات باشا).

---

(١) وفي الوقت الذي كان فيه ملوك هذه الأسرة فظين غليظين جبارين على أهل السنة كانوا رقيقين لينين مع النصارى كما يعترف بذلك ويُقره الكاتب المؤرخ الشيعي عباس إقبال حيث يقول : " ولم يكن الشاه عباس فظا على غير أهل السنة من دون أتباع سائر المذاهب لذا فقد جلب أثناء غزواته لأرمينية والكرج نحو ثلاثين ألف أسرة من مسيحي هذه الولايات إلى مازنداران وأسكنهم بها كما رحّل إلى أصفهان خمسين ألف أسرة من أرامنة جلفا وإيران وبنى لهم مدينة جلفا على شاطىء نهر زاينده رود وأنشأ لهم فيها الكنائس وشجعهم على التجارة مع الهند والبلاد الخارجية بأن أعطاهم الحرية الكاملة "؛ للتفصيل ينظر :عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة الاجارية، نقله من الفارسية وقدم له وعلق عليه : د. محمد علاء الدين منصور ، (القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٤١٠هـ) ، ص٦٧٠.

(2) Encyclopedia of the Ottoman Empire, Door Ga´bor A´goston,Bruce Alan Masters, 2009, p.23.

- أصبح أمام الحجاج الإيرانيين أكثر من طريق للوصول إلى مكة؛ والطريق عبر سوريا (دمشق- حلب) أكثر أمانًا، ويصب في مصلحة العثمانيين في تحصيل الرسوم.
- حاولت الدولة الصفوية إرضاء الدولة العثمانية بجزء متفق عليه من الحرير (٢٠٠ حِمل)، ولم تحدد الاتفاقية طبيعة هذا البند، وكان محل استثارة للحرب آجلًا؛ فبينما فسره العثمانيون على أنه جزية، رآه الصفويون كهدية.
- تبرز أهمية معاهدة أماسية في ترسيم الحدود، وكونها أنسب الاتفاقيات، وذلك عندما رأى الطرفان الرجوع إلى ما نصت عليه لترسيم الحدود مرة أخرى.
- كانت الحالة التي عليها الدولة العثمانية من التردي والتأزم الاقتصادي سببًا هامًا في طمع الصفويين في استرجاع ما انتزع منهم في اتفاقية فرحات باشا ١٥٩٠م.
- إعادة تجهيز الجيش وصحبها عدة إصلاحات إدارية واقتصادية في إيران ساعد في قلب موازيين القوة بين الدولتين.
- دهاء عباس الأول -الشاه الإيراني- في خضوعه لاتفاقية استانبول حتى تتسنى له فرصة الاستعداد والتهيئة لملاقاة الجيش العثماني.
- ضمنت السلطنة العثمانية ولاء الأكراد بطريقة غير مباشرة عبر البند الخامس الذي تتعهد فيه الدولة الصفوية بعدم حماية هلوخان -حاكم شهرزور (مأوى الأكراد)-.

وبقى لنا أن نشير إلى أن اتفاقية نصوح باشا لم تستمر طويلًا؛ حيث أعلن طهمورث خان -حاكم كاخت الگرجستاني- عصيانه على الدولة الصفوية، ولم يرض بأن تكون گرجستان ضمن الحدود الصفوية، واشتعلت الحرب مرة ثانية عام ١٥١٥م؛ لأن الدولة الصفوية قررت محاربة طهمورث خان، وبالفعل طرده من كاخت، والدولة العثمانية أعدت حملة لإرجاعه إلى حكم كاخت، وكان أيضًا من أسباب تلك الحرب البند الذي يتعلق بما تدفعه الدولة الصفوية من أحمال من الحرير للدولة العثماني وفق ما وضحناه سابقًا في اختلاف تفهم كلا الطرفين لنص هذه البند وتفسيره.

انتهت الحرب عام ١٦١٨م بهزيمة العثمانيين أكثر من مرة، وسيطرة الصفويين على گرجستان كاملة، وتم توقيع اتفاقية سراب ١٦١٨م بين الشاه عباس والسلطان عثمان الثاني -تولى الحكم ١٦١٨م- وفيها تقرر دفع مئة حِمل فقط من الحرير على سبيل الهدية وليس الخراج أو الجزية، وتكون الحدود بين البلدين وفق معاهدة أماسية ١٥٥٥م.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الدولة الصفوية أصبحت ندًا قويًا للدولة العثمانية منذ تولي الشاه عباس الأول، وقد استجابت الدولة العثمانية لاتفاقيّ صلح بين الدولتين في فترة وجيزة -نصوح باشا (١٦١٢م)، وسراب ١٦١٨م- وهذا يعكس أمرين:

أولهما: صعود القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية لدى الصفويين.

ثانيهما: ترسخ لدى الدولة العثمانية فكرة توازن القوى، وأنه لا طائل من جراء الحرب مع الدولة الصفوية، فضلًا عن انعدام المكاسب الإقليمية والاقتصادية.

الخاتمة:

توصل هذا البحث إلى عدة نتائج، أبرزها:

١. كانت معاهدة نصوح باشا –من حيث مدتها الزمنية– من أقصر المعاهدات التي عقدت بين البلدين، ولذلك يمكن اعتبارها هدنة قصيرة الأمد إذ ما قارناها بغيرها من المعاهدات.
٢. كما توصل البحث أن الدولة العثمانية رغم قوتها العسكرية كانت دائما تحاول تهدئة الأوضاع وحل المشكلات الخارجية مع الدولة الصفوية، مما يشي بقوة تأثير الصفويون على الناس والبلدان.
٣. نجحت الدولة الصفوية –ولأول مرة– في أن تملي شروطها على الطرف العثماني وترغمه بطريقة ما على قبولها.

التوصيات:

أولا: أوصي بعقد دراسة مقارنة بين هذه المعاهدات التي أبرمت بين الدولتين العثمانية والصفوية؛ تبرز الآثار المترتبة على كل واحدة منها ومقارنتها بغيرها من المعاهدات.

ثانياً: كما أوصي بدراسة أثر هذه المعاهدات على الحياة الاجتماعية في الدولتين العثمانية والصفوية.

ثالثاً: كما أوصي بدراسة وضعية المذهب وأثره في هذه المعاهدات (سلبا وإيجابا) في كلا الجانبين؛ العثماني والصفوي.

أهم المراجع:

اولاً:– المراجع العربية:

١. د.أحمد الخولي ، د.بديع جمعة. تاريخ الصفويين وحضارتهم،(القاهرة: دار الرائد العربي، ١٩٧٦).
٢. د. أكمل الدين إحسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ،(اسطنبول: مركز أبحاث التاريخ بإسطنبول ، ١٩٩٩م).

٣. سعيد أحمد برجاوي، الإمبراطورية العثمانية (تاريخها السياسي والعسكري)، (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م).
٤. شرف نامه، شرف خان البدليسي، ترجمة: محمد على عون، راجعه وقدم له: د. يحيى الخشاب، نقحه: د. محمود زايد.
٥. صالح كولن ، سلاطين الدولة العثمانية ، ترجمة :منى جمال الدين،(القاهرة : دار النيل للطباعة والنشر،٢٠١٤م).
٦. د.عباس إسماعيل صباغ ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية: الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، (بيروت: ، دار النفائس، ١٩٩٩م).
٧. عباس إقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة الاجارية، نقله من الفارسية وقدم له وعلق عليه : د. محمد علاء الدين منصور ، (القاهرة : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٤١٠هـ).
٨. ف.ب.هامر، تاريخ امبراطوري عثماني، ترجمة: ميرزا زكي علي مازندراني، به اهتمام: جمشيد كيان فر، تهران، ١٣٦٧هـ.
٩. كمال السيد، نشوء وسقوط الدولة الصفوية(إيران: مكتبة فدك، ٢٠٠٥م).
١٠. أ.د.محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية في إيران، (بيروت: دار النفائس، ٢٠٠٩م).
١١. د.نايف عيد السهيل ، العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران، (القاهرة : مركز البحوث والدراسات التاريخية، ٢٠٠٩م).
١٢. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سليمان، (د.م : مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٨٨م).

ثانيا:- الرسائل الجامعية:

١- عبدالحميد الأرقط ، أوضاع الدولة الصفوية وعلاقاتها الخارجية في عهد الشاه عباس الأول(٩٩٦-١٠٣٨ه/ ١٥٨٨-١٦٢٩م)،(رسالة ماجستير)، (جامعة حمة لخضر -الوادي-: كلية العلوم الاجتماعية والانسانية ،٢٠١٥).

ثالثاً:- المراجع الأجنبية:

- Jump up ^ Alexander Mikaberidze, Conflict and Conquest in the Islamic World: A Historical Encyclopedia, ABC-CLIO, 2011..

- Jump up ^ Prof. Yaşar Yücel–Prof. Ali Sevim:Türkiye Tarihi III, AKDTYKTTK Yayınları, 1991.
- Jump up ^ Nicolae Iorga: Geschichte des Osmanischen Reichs Vol. III, (trans: Nilüfer Epçeli) Yeditepe Yayınları, 2009, ISBN 213.
- Encyclopedia of the Ottoman Empire, Door Ga´bor A´goston,Bruce Alan Masters, 2009.